نظرات في النفس والحياة

— ١١ —

نظرات لابرويير

لا تتم النظرات التي اقتبسناها من الأدب الفرنسي من غير اقتباس بعض نظرات لابرويير والتعليق عليها بما يناسبها من الآراء . وقد ترجم حياته ونقده الكاتب المطلع جورج نيقولاوس في عدد ماضٍ من أعداد المقتطف ، ولكنه لم يكثر من الاقتباس منه . وكنت قد اطلعت على إعلان عن ترجمة كتابه الأخلاق ولكني لم أره . وفي بعض التعليق الذي نضيفه الى نظراته ما يجرنا بذكر ما يوافقها أو يخالفها من آراء المفكرين. وقد كان لابرويير معاصراً للاروشفوكولد وهو ينحو نحوه وتارة يرتفع الى مستواه ، وتارة ينخفض عنه . ونجده في بعض نظراته يتردد في رد فضائل الانسان كلها وعيوبه الى الأثرة وحب الذات كما ردها لاروشفوكولد . والمفكرون مختلفون في هذا الرد كما سيتضح وقد درس لابرويير القضاء وزاول منصباً اداريًّا في نورماندية . ثم عين مربياً ومعلماً لدوق بوربون حميد امير كوندي ، وانتخب عضواً في المعهد العلمي الفرنسي . وعندما أدركته المنية كان قد ألَّف من هذه النظرات ألفاً ومئة. فلعلَّ اكثاره سبب تفاوته فيها. وقد وصف الفلاح الفرنسي وصفاً ينذر بالثورة الفرنسية قبل أوانها . وهذه بعض نظراته وأفكاره :

(١) اذا صحَّ ما يقولون من أننا نشفق على التعساء إشفاقاً على أنفسنا أن نصير يوماً مثلهم تعساء ، فلماذا لا نعطف عليهم ولا نحسن إليهم ولا نشاركهم فيما نالهم من النعمة إلا بهذا القدر الزهيد التافه ؟! . ولهذا أسباب منها : أنه اذا كان جانب من النفس يعطف ويحسن خشية أن تصير مثل من نحسن إليه، فان للأثرة جوانب أخرى تدفعها الى الاستئثار بخيرات الحياة . ثم ان الاحسان الزهيد التافه قد يُرضي ضمير المحسن فلا يُحسُّ ألماً ، بل إن

الرحمة من غير إحسان ومعونة قد يعدها من يشعر بها تكفيراً عن كثير من وسائل الاستئثار بالخير، وان لم يصحب الرحمة برّ فتعيد الى نفس صاحبها الاطمئنان، وتدعوه الى استئناف الكفاح والمنافسة في خيرات الحياة. ومن عوامل الزهد في البر والاحسان الخوف اذا بذل المرء ما عنده أن يصير مثل من يحسن إليه. وكل هذا لا ينافي أن المرء قد يحسن احساناً زهيداً تافهاً خشية أن يصير مثل من أحسن إليه. وان الاحسان هنا من الأثرة وباعثه حب الذات. والتكفير عن وسائل الاستئثار أو عن السعادة.

على أن كثيراً من المفكرين ينكرون أن تكون كل دوافع النفس أساسها واحداً. وينكرون أن تكون كلها مردودة الى عامل الأثرة وحب الذات. قال هازليت إن أحاسيس النفس المتضاربة وأهواءها المتباينة وهواجسها المتنافرة تُبطل أن يكون للنفس أساس واحد وهو حب الذات، اذ كثيراً ما يتعس المرء نفسه لأسباب تافهة لا تفيده بل تضره. على أن هذا لا يمنع أن يكون مَرَدُّ كثير من الأمور التي تتعس المرء الى الأثرة الحمقاء الحقاء التي تتعس المرء وهو يظن انها تسعده، كما لا يمنع أن يكون الايثار نوعاً من الأثرة كأن توجو به النفس العلاء والمجد وطيب الذكر والظفر بالايثار، فهي تتجنب الأثرة وتختار الايثار لأوجهٍ من النفع. واذا أخذ الانسان برأي شوبنهور في وحدة الحياة وانه مظهر من مظاهرها فحسب، وان اعتبار نفسه وحدة مستقلة من خطأ الحواس والاحساس استطاع أن يتخلص من بعض إثرته إلاّ إذا عدّ نفسه الممثّل الأعظم لوحدة الحياة وإرادتها، وإنه من أجل ذلك أحق بالخيرات والاستئثار بها. وكان (كانت) الفيلسوف الألماني يعد الواجب المفروض فكرة أولية في النفس. وقال ينبغي أن يعمل الانسان بحيث يصح أن يكون عمله وخلقه مبدءاً عامًّا. وهذا مشتق من قول جان جاك روسو: ان كل انسان ينبغي أن تكون ارادته الخاصة مطابقة للإرادة العامة للأمة. وأعتقد أن كل هذه الآراء مشتقة من الفكرة القديمة التي توجد في كتب الأدب العربية كما توجد في الانجيل على لسان عيسى عليه السلام وهي: ينبغي للمرء أن يعامل الناس كما يود أن يعامله الناس، أي حب للناس ما تحب لنفسك. ومن الغريب أن الأستاذ توماس هوكسلي (أي هوكسلي الكبير) في مجموعة رسائله يرفض هذا المبدأ بدعوى أن كل إنسان يود أن يغتفر الناس قسوته وجرائمه

وآثامه، فلو اغتفرت كل الآثام والجرائم أصبح العالم فوضى وانتشر الشر . وبديهي أن هوكسي فسرها على غير معناها ، إذ أن معناها : عامل الناس بمثل ما تود أن يعاملوك به من التعاون التام والامتناع عن القسوة والآثام في معاملتهم لك . على أن أداء الواجب ليس فكرة أولية كما زعم (كانت) بل هي فكرة مكتسبة ولا هي راسخة في النفوس ، بل كثيراً ما تنتفي في النفس وتحل محلها الآثرة الجامحة القاسية . ولكن مما لا شك فيه أن الانسان قد تتأصل فيه روح التضحية حتى يكون عمله باعث نفسي عكس قوله ورأيه ، كما في قصة روبرت جرانت الكاتب الأمريكي المسماة (عمله ضد رأيه) وهي قصة رجل مفكر أبى أن يحبذ عمل انسان أودى بحياته في انقاذه طفلاً صغيراً لأن هذا المضحي الذي أنقذ الطفل ومات في أثناء انقاذه قد خلف زوجة وسبعة أطفال وهو كاسب رزقهم وتحمل المفكر عليه عمله اشمئزاز أصدقائه من رأيه ، ولكنه بعد زمن فعل مثل الفعل الذي أنكر تحبيذه بدافع خفي من نفسه فأنقذ طفلاً من الهلاك وهلك بسبب ذلك، وهذا يذكرني قصة (على الحدود) لموريس لي بلان وبها مفكر يرى أن الحروب لا تبطل الاَّ إذا امتنع كل انسان عن القتال حتى ولو غزيت أمته في عقر دارها . ولكنه لما رأى الألمان أغاروا على الحدود حمل سلاحه بدافع غريزي من نفسه وذهب ليقاتلهم وليدافع عنها . وهذا غير ما فعل رومان رولان الكاتب الفرنسي الذي أبى الحرب وأبى القتال ورفض حمل السلاح وترك فرنسا وذهب الى سويسرا فسقط في نظر كثير من الفرنسيين. وقد قال «كانت» أن المرء لا يستطيع أن يحكم أن الواجب هو الذي يدفعه الى عمل من الأعمال إلاَّ اذا كان هذا العمل يخالف رغباته المحبوبة السارة، وليس معنى ذلك أن الواجب لا يكون واجباً الاَّ إذا كان كريهاً بغيضاً مخيفاً، وانما هذه فكاهة من شيلر الشاعر الألماني يداعب بها «كانت» وقد كان معجباً به . وبعد كل هذه الجولة في التفكير فاننا لم نقطع برأي بات في تساؤل لا روية .

(٢) فلما يلتذ المرء أن يرى نفسه مكلفاً بمعاونة انسان في حاجة اليه. ولكن من الغريب أن الحظ السعيد اذا جعل هذا الانسان في غنى عنه وعن مساعدته فانه قد يسر لرفع العبء عنه، ولكن سروره لا يكون تاماً بل قد يمازجه شيء من الامتعاض كأنما ذلك الحظ السعيد الذي أغنى ذلك الانسان عنه قد انتقص من قدره، لأن احتياج المحتاج اليه يشبع

غروره وزهوه بأرشم من عنده . واشباع زهوه يسعو امكانه الى قدر نفسه وعظمتها ، أو قل إن الاثرة في باطن نفسه كانت تفضل أن يزاد سعداً على سعد بأن ينال الحظ السعيد الذي فاله المحتاج اليه، ثم يظل ذلك المحتاج اليه محتاجاً اليه . وكذلك اذا نال صديق نعمة أو منزلة أو جاهاً فان المرء يبتهج بما نال صديقه ويسر له، ولكن سروره كثيراً ما يمازجه امتعاض خفي ، فالسرور بنعمة الصديق لا ينفي وجود عكسه من حسد أو تنغيص أو ألم ، لأنه لم يزد حظاً على حظ بدل أن ينال الحظ صديقه. وهذا من اجتماع الاضداد في النفس وقد تجتمع .

(٣) ان الذي يستطيع أن يصبر صبراً طويلاً قبل نيل مايريد لا ييأس كل اليأس إذا لم ينله. أما الذي يترقب نيله بشغف ولهفة لا صبر فيهما فانه أكثر تعرضاً لليأس. ثم هو إذا نال ما يريد لا يرى ما ناله بعد آلام اللهفة كفاء لما قاسى في سبيل توقع نيله وارتقابه من عنت الشغف واللهفة ، فكأنه لم ينله كله أو بعضه :—

وهذا اذا كان الشغف به لا يزال في نفسه كله أو بعضه أما اذا كان قد زال أكثره فان مارسيل بروست صادق في قوله إنه اذا تحققت الرغائب بعد زوال الشغف بها قنعنا منها بأقل مما كنا نقنع من قبل اذ الشغف لا يزال قاهراً حادًّا .

(٤) الانسان يزداد مع الزمن ألفة لمن صنع معهم جميلاً وأحسن إليهم، ولكنه يزداد نفوراً ممن أساء إليهم. وذلك لأن رؤية الطائفة الأولى تزيد حسن رأيه في نفسه. أما الطائفة الثانية فان رؤيتها تذكره إساءته إليهم فتقلل من حسن رأيه في نفسه حتى ولو كان جانب من نفسه يباهي بقدرته على الإساءة فان جانباً آخر من نفسه يبصره بعيوب نفسه ولو كان ذلك عن طريق الوعي الباطن الخفي .

(٥) الناس يذمون الاسراف في كل الأمور إلاَّ الإسراف في شكر نعمتهم عليهم، فانهم قلما يذمون الاسراف في شكر نعمتهم — الاَّ اذا فطنوا الى أنه يزاد به المزيد من النعم التي لا يريدون أن يجودوا بها — ولكن الناس في أكثر الأحوال يطلبون المزيد من شكر نعمتهم معنى بالغ الشاكر في شكرها ، ولا يرون شكره كفاء لما أولوه من النعمة ، بل يرون أنه دائماً مدين لهم بالشكر .

(٦) فالحديث المحبوب لدى القلب أطيب من الحديث المقنع للعقل بحججه . ومن أجل ذلك تُصغي النفس الى ما تود أن تسمعه أكثر من اصغائها الى ما يقنعها — بل هي تصغي أكثر من ذلك فتستنبط للحديث الذي تود أن تسمعه براهين وأدلة كي تقنع نفسها أنه أقنعها، وإنها لم تصغ إليه لأنه محبوب تود سماعه، بل أصغت إليه لأنه يدلي بالمنطق الحق والبرهان الصادق، وأحياناً لاتكلف نفسها مؤونة ذلك وتكتفي بأنه حديث شائق محبوب تود سماعه .

(٧) الرجل يصعب عليه، لا سيما اذا كان على شيء من الكبر، أن يغتفر لآخر اطلاعه على سقطة أو زلة أو سيئة بدرت منه، وخاصة ان كان عند المطلع على زلته أسباب وجيهة تدعوه الى مؤاخذته أو لومه، ولا يهدأ غضب صاحب السقطة أو الزلة أو السيئة إلا إذا ألزم الآخر مثلها وأظهره في مظهر شبيه بها فكأنه بذلك يمحو أو يخفي أو يهوّن من أمر زلته أو عيبه، ويزداد قدراً لدى نفسه . ولما كانت العيوب والسيئات شائعة بين الناس كثيراً ما يتعاونون لتهوين زلاتهم بإلزام غيرهم سيئات مثلها .

(٨) كثيراً ما تصدر من المرء أعمال عظيمة واحساسات نبيلة فتنسب الى حب الخير الغريزي في النفس البشرية. والحقيقة انها بسبب ما اكتسبه بالعادة والمراس والمحاكاة للخلق السائد الممدوح لدى الناس، فان هذه الأمور تكسب المرء قوة خلقية. أما غريزة الخير فانها تضعف لولا العادة والقدوة وما يزيدانها تمكناً .

(٩) كثيراً ما يكون ضعف المرء وعجزه باعثين له على البغض والكره والمقت، إذ لو كان قادراً غير عاجز للجأ الى وسائل أخرى . والرغبة في الانتقام وطول التفكير فيه هما بسبب هذا الضعف لأنه لم تتم له بعد أسباب المقدرة عليه، فضعف المرء يدعوه الى كره الناس. ولكن كله وجه الراحة والدعة والاطمئنان والسكينة أمور قد تدعوه الى التخلي عن كرهه وعن محاولة التشفي . ومن أجل ذلك كان من الصعب ان يقهر المرء غضبه في أول الأمر إذا غضب على انسان، ولكن اذا تراخى به الزمن كان من الصعب أن يعاني شعور الغضب والبغض على الدوام لأنه يقلل من راحته وهناءته، إلا اذا جعل للسخط والرضا، تداولاً وتعاقباً على نفسه .

(١٠) من الصعب محاولة إغراء المرء باتباع رأيك في الامور الكبيرة قبل ان تتمكن من أن تعوّده على اتباعه في الامور الصغيرة التافهة. فان المرء يأنف ان يعمل حسب ما يوحي به غيره — حتى ولو كان صواباً — إلاّ إذا كان الموحي المغري صاحب لباقة تمنع الموحى اليه من الشعور بالأنفة والغضاضة والهوان اذا اتبع رأيه. وتسيم إياه نفسه ان ينقاد لرأي غيره. فاذا لم يكن المغري بالرأي الموحى به صاحب لباقة كهذه الباقة دفع المرء الاستحياء أو الكبر أو هوى النفس الى رفض ذلك الاغراء والتحكم. ولكنه اذا تعوّد أن ينقاد في الامور الصغيرة التي لا يرى أنفة في الموافقة عليها بسبب زهادتها وتفاهتها، انزلق واسترسل به التعود فينقاد في الامور الكبيرة. وهذه حقيقة يعرفها الناجحون في الحياة الذين يحملون الناس على قضاء ما يريدون وقد يحملون من هم أكبر عقلاً منهم، ومن ثمّ نراهم لا ينقادون لامثالهم وانما يفعلون ذلك باتباع هذه الحقيقة النفسية السيكولوجية. وكثيراً ما يكون الضعف سبب انقياد المرء لرأي غيره. ولكن الكسل وحب الراحة من أسباب هذا الانقياد. وهي حقيقة يستغلها ويستثمرها ذوو الالحاح لنيل مطالبهم، وكأنهم يغتنمون فرص استرخاء الكسل والدعة ومحبة الراحة ويعرفون صفاتها وأوقاتها فيهجمون في حالاتها على من يريدون الالحاح معه بالباقة كتلك التي وصفت.

(١١) قد يكون من الدهاء أن نعامل أعداءنا على أمل أن يكونوا يوماً أصدقاءنا، وان نعيش مع أصدقائنا على حذر من أن يصيروا يوماً أعداءنا. ولكن هذا يجافي أصول المودة والعداوة. وقد يدعو الى أخلاق غير فاضلة والى تكلف ما ليس من الصدق والنبل، والى استخدام الكذب والرياء. وأفضل من ذلك أن لا يصاحب المرء الاّ ذوي العقل والأمانة والشهامة الذين اذا صاروا أعداءه عادوه من غير أن يتعدوا حدود العقل والأمانة والشهامة — ولكن هل يستطيع دائماً أن يميز من لا يتعدون حدود العقل والأمانة والشهامة في عداوتهم؟ . في بعض الاحايين يستطيع تمييزهم بأن يفحص معاملتهم لاعدائهم قبل أن يصادقهم. فاذا وجد انهم يعاملون أعداءهم بالخيانة وقلة الشهامة والرعونة، استطاع أن يعرف انهم لو صاحبوه ثم عادوه، عاملوه بمثل تلك المعاملة التي تدل على لؤم العداوة وخستها وغدرها وحماقتها.

(١٢) لو اننا لم نسرّ وتأنينا فلم نضحك إلاّ بعد زوال جميع منغصات حياتنا ، وبعد كمال سعادتنا ، لكان من المخوف أن نموت قبل أن نضحك . والحقيقة ان الضحك أو حتى تكلف الضحك، قد يقلل من متاعب الحياة . ولكن كثيراً من الناس يتشبثون بمنغصات حياتهم ومتاعبها ، بأن لا يبيحوا لأنفسهم الضحك إلاّ بعد زوالها فيكون تشبثهم بها بحرمان أنفسهم من الضحك باعثاً على بقاء متاعبهم وتثل عيشها .

(١٣) أحب الرغبات الى الانسان التي لا تتحقق ، لأنه متى تحققت وفاز بها ألفها واعتادها ووجد بعض الملل في نفسه إليها سبيلاً في بعض الأحايين فتقل قيمتها . وكثيراً ما نرى الرغبات التي تتحقق ويفوز بها الراغب توانيه في غير أوانها التي يسعد بها فيه أو توانيه في حالات من حالات نفسه . وفي ظروف من الحياة تقل من المتعة بها . ولهذه الأسباب كلها تقل قيمة الرغبات اذا تحققت معها كانت عزيزة محبوبة قبل الوصول إليها . فلا تنفع الفائز بها ، ولا ترتاح نفسه ، ولا تهدأ ، وهو كذلك لا ترتاح نفسه ، ولا تهدأ ، اذا لم تتحقق الرغبات بسبب ألم اللهفة . فالانسان قلما يرضى سواء تحققت رغباته أو لم تتحقق . وفي هذا عظة له وعبرة لو يعتبر .

(١٤) إنّ ألم الحزن لفقد من نحب أقل ثقلاً على النفس من نكد العيش مع من نكره . ومن منغصات الحياة مع من نبغض ، لأن ألم الحزن على الفقيد المحبوب يتقاله مرور الأيام ، ويكتسي وشياً من الذكريات الجميلة التي تكسب الحزن شيئاً من مباهج الجمال . أما العيش مع البغيض المكروه فانه يزداد ثقلاً على النفس فتزداد به غمًّا ما دام دائماً لم يزل .

(١٥) المودة المتكلة الصادقة في كل بواطنها ومظاهرها ، أندر وأقل حدوثاً من العشق الشديد . وفي المودة فأمن التصديق على أسرارنا بمحض إرادتنا . أما في الحب فلا إرادة فيه ، بل قد تذيع أسرارنا بالرغم منا . وقلما تزول الصداقة إلاّ لأسباب تدعو الى فقدها كالغدر أو الاساءة التي لا تقبل ، أو الجفاء الذي يدل على الغلظة . أما الحب فقد يوجد كأشد ما يكون بالرغم من هذه الأسباب . فاذا زال فقد يزول من غير ما سبب ، بل يفيق المحب الى أنه قد صار لا يحب حبيبه وهو هو لم يتغير . وقد يولد الحب بغتة من غير ارادة أو تفكير . أما المودة فانها في حاجة الى العشرة والألفة والزمن كي تنضج ثمراتها . وقد يكون أشد الحب الحب الناشئ من أول نظرة . وربّ نظرة الى وجه جميل أو يد رشيقة قد تنتج بالقلب في طرفة عين ، ما لا تصنعه أعوام طويلة زاخرة بالعطف والمودة وأداء المعروف .